الطبيعة فى شعر ابن خفاجة

— ٣ —

وصف الآلات والأدوات :— كان علينا أن ننتقل بك فى هذا الفصل الى وصف الخمر ووصف مجالسها فى شعر ابن خفاجة ، وأن نريك الطبيعة الماثلة فى ذلك النوع من الشعر ؛ ولكنا رأينا أن نذكر شيئا عن تشبيه الآلات والأدوات ، ووصفه للخيل والذئاب ، قبل أن نذكر لك شيئا من أقواله فى الخمر ، ومن تشبيه إياها ، خوفا عليك من أن تنتشى وتطرب فلا تعود تصغى الينا .

وهو فى وصفه السيف والرمح والقوس والكأس والزورق ، وفى وصفه للفرس الأشقر ، والكلب والأرنب ، لا يخرج فى كل هذا عن الطبيعة فى شىء ، ولا يشبه تلك الأدوات إلا بما يماثلها فى الطبيعة . فيقول فى السيف :

ومرهف كلسان النار منصلت يشفى من النار أو ينفى من العار

فهو يشبهه بلسان النار الملتمع . ثم يقول :

تخال شعلة نار منه طائرة فى عارض من عجاج الخيل موار
يمضى فيهوى وراء النقع ملتهباً كما تصوّب بحرى كوكب سار

وهو يشبه قول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ويقول أيضاً فى وصف كأس أهديت اليه :

ومثلك مد يمين الندى بعلق يطيل عنان النظر
بازرق سالت به صفرة كما طرز البرق ثوب السحر

يقول إنه كأس ازرق قد سالت به صفرة فبدا كسماء ابرقت فى ليل مظلم

ويقول كذلك فى الرمح :

وأسمر يلحظ عن ازرق كأنه كوكب رجم وقد
يعتمد العين اعتماد الكرى وينتحى القلب انتحاء الكمد

فان السمرة والزرقة وكواكب الرجم المتوقدة والكرى والكمد كلها صور لأشياء طبيعية ، شبه بها عود الرمح الاسمر ، وسنانه الأزرق ، ولمعانه وقت الطعن

وأجمل ماقاله فى وصف الآلة وصفه القوس فهو يقول :

عوجاء تعطف ثم ترسل تارة فكأنما هى جيئة تنساب

واذا انحنت والهم منها خارج فهى الهلال انقض منه شهاب

فلم يخرج فى تشبيهها ووصفها عن حيوان الطبيعة وعن افلاكها .

ويقول فى صفة كلب وارنب :

واطلس ملء جانحيه خوف لأشوس ملء شدقيه سلاح

فهو يشبه الارنب الهاربة امام الكلب بالذئب للتشابه الموجود بين لونيهما ، وللتشابه الموجود بين حاليهما ، لأن الذئب يهرب من وجه الكلب ، ويعبر عن الكلب بالأشوس ، وهى حال ضم الجفنين للتحديق والنظر ، ويشبه انيابه التى كشر عنها بالاسلحة التى يحملها الصياد .

ويقول فى صفة فرس اشقر عليه حلى للاناقة :

بسام ثغر الحلى تحسب انه كأس اثار بها المزاج حبابا

فهو يشبهه بكأس من الخمر قد مزجت بالماء فبدت صفراء اللون وطفا عليها حباب ابيض

واقرأ هذه المقطوعة فى وصف نزهة ركب اليها زورقا :

وانساب بى نهر يعب وزورق فتحملنى عقرب وحباب
نجلو من الدنيا عروسا بيننا حسناء ترشف والمدام رضاب
ثم ارتحلت وللسماء ذؤابة شهباء تخضب والظلام خضاب
تلوى معاطف الصبابة والصبا والليل دون الكاشحين حجاب
حيث استقل الجسر فوق زوارق نسقت كما تتراكب الاحباب
لم تسبق وكأنها مصطفقاً دُهم تنازعك السباق عراب

فقد شبه اولا الزورق الادهم بالعقرب لانحناء مقدمه الى الاعلى ، وانحناء متوسطه الى الاسفل ، وشبه ماء النهر الثائر المائج المزبد بالحباب . ثم شبه ثانية اصطفاف الزوارق باصطفاف الخيل العراب للسباق :

الى هنا انتهى كلامنا عن وصف ابن خفاجة للآلات والأدوات ، وقد اريناك تشبيهاته واوصافه التى اتى بها ولم يخرج فيها عن حيثية الطبيعة التى يرى بها كل ما فى الوجود ، وكأنه لايرى فى الحياة الا الطبيعة ، فلا يتكلم الا عنها ولايشبه الا بها .

فان كان البحترى قد أثر فيه حب علوة الحلبية فقال الشعر الغنائى الرقيق ، ورسم الصور الشعرية الجميلة ، واخذ فى كل هذا على نفسه ألا يبوح باسمها

وسميتها من خشية الناس زينباً وكم سترت حباً عن الناس زينب

فان ابن خفاجة اثرت فيه الطبيعة فهام بها وأحبها حتى كان يذكرها فى شعره واصفاً او متغزلا ، صاحياً او نشوان .

وكأنه وهو نشوان اقدر على وصف الطبيعة والتشبيه بها ، او كأن حبه لها يهيج فيه قريحته الشعرية حين يجلس الى الشراب

ثم لا يرى بدأ من ذكرها لأنه مفتون بجمالها مسحور بمناظرها

أنوار فى الخمر : — يصف ابن خفاجة الخمر ويصف كؤوسها ويشبهها فيتفنن فى التشبيه والوصف، فاذا اردنا ان نقايس بينه وبين ابى نواس فى وصفها ، فهو بلا شك دون منزلة ابى نواس . لان ابا نواس يقصد الى الخمر قصداً فينشىء القصيدة على ذكرها ويجعلها موضوعا من الموضوعات الشعرية ؛ ولكن ابن خفاجة فى مقطوعاته التى يذكر فيها الخمر يجعلها احد المواضيع التى ينشىء فيها المقطوعة . فأكثر مقطوعاته الخمرية يشبها على ذكر نزهة جميلة مع اخوان صدق فى ظلال الاقداح يشربون ويسمرون ؛ او على ذكر مجلس اخوان واصدقاء يقرضون الشعر ويصفون فيه مجلسهم واعتكافهم على الخمر ؛ أو يصف الخمر أثناء تغزله ؛ وفى كل مقطوعة من مقطوعاته التى فيها للخمر ذكر لا ترى الا البيت والبيتين . قال من وصف يوم أنس وفكاهة :

وجاء بها حمراء اما زجاجها فماء ، وأما ملؤه فلهيب

فهو يقول : انها خمرة حمراء كأنها لهيب النار المتوقدة فى كأس كأنه الماء صفاء وشفافية :

ويصف الخمر بيد حبيب له فيقول :

مشمولة بينا ترى فى كفه ماء ، ترى فى خده الهوبا

فهو يقول : انها باردة الطعم لهبوب الشمال عليها كأنها الماء صفاء ، وانه محمر الخدين كأنها لهيب نار مستعرة ، وقال أيضاً :

فجاءت بحمراء وقادة تلهب فى كأسها كوكبا

فقد شبهها بالكوكب المتوقد وهو يشبه قول ابى نواس :

اذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

ويشبهها بالفرس الأشقر فيقول :

وقد جال من كأس السلافة أشقر يسابقه من جدول الماء أشهب

ويقول فى وصفها أيضاً وهو يتغزل :

حيا بها ونسيمها كنسيمه فشربتها من كفه فى دره

مشاغة ، فكأنها من ريقه محمرة ، فكأنها من خده

الى هنا لا نرى فى وصف ابن خفاجة الخمر وفى تشبيه أياها شيئاً يخرج عن الطبيعة : فقد شبهها بلهيب النار المشتعلة وشبه كأسها بالماء الصافى الرائق ، ثم شبهها بالكوكب المتوقد ؛ ثم شبهها بالفرس الأشقر للونها الأشقر ، ثم شبهها وقال انها مشاغة فكأنها من ريق الحبيب الخمر العذب ، وأنها حمراء كأنما قد عصرت من خده الوردى .

وأقرأ هذه المقطوعة يداعب بها الساقى الاسود . وانظر كيف يصف الخمر الحمراء والكؤوس البيضاء ، ثم ينبرى فيصف لنا المكان الذى جلسوا به . والوقت الذى شربوا فيه ، ولاحظ اذا شئت تشبيهاته واوصافه التى لا يخرج بها عن مناظر الطبيعة وعن أوصافها .

رب ابن ليل سقانا والشمس تطلع غره
فظل يسود لونا والكأس تسطع حمره
كأنه كيس خم قد أوقدت فيه جمره

الى أن يقول :

فظلت آخذ ياقوتة واصرف درة
حتى تثنيت غصنا وأصفرت الشمس نقره
وارتد للشمس طرف به من القم حسره
يجول للغيم كحل فيه وللقطر عبره

فهو يقول : إن عبداً اسود قام يسقينا منذ طلوع الشمس ، وكأنه وهو يدير علينا الخمر فى كؤوسها الحمراء كيس من فحم قد أوقدت فيه جمرة ملتهبة . وظللت على هذه الحال أتناول الكأس مملوءة حمراء كالياقوتة وأعيدها فارغة بيضاء كالدرة ؛ حتى تثنيت من شدة السكر كالغصن تثنيه الرياح ؛ وحتى اصفر لون الشمس وارتد طرفها الى الغروب كما يرتد طرف الناعس من النعاس ، وكانت الغمامة ذكناء كأن بها كحل كاحل ؛ وكانت ممطرة كأنها عين باك مستعبر .

وقال ايضا يصف متفرجا . ويصف فى اثناء ذلك الخمر :

وبحر ذيل غمامة قد نمقت وشى الربيع به يد الانواء
ألقيت أرحلنا هناك بقبة مضروبة من سرحة غناء
وقسمت طرف العين بين رباوة مخضرة وقرارة زرقاء
وشربتها عذراء تحسب أنها معصورة من وجنتى عذراء
حمراء صافية تطيب بنفسها وغناؤها وخلائق الندماء

يتبع أدلب عبد الرحمن جبير

على هامش السيرة

للأستاذ الدكتور طه حسين

ظهر حديثا ويقع فى مائتى صفحة

يباع فى المكاتب الشهيرة وثمنه عشرة قروش صاغا